الحركة الإصلاحية في الجزائر ودورها في الحفاظ على اللغة العربية والدفاع عنها

د. الوكّال زرارقة

سياسة فرنسا الاستعمارية تجاه اللغة العربية في الجزائر

منذ أن وطئت قدم الاستعمار البلاد الجزائرية سنة ١٨٣٠م عمل وبأقصى جهده على تطبيق سياسة جهنمية استهدفت الأرض والإنسان الجزائريين، وسعى إلى تغييب الجزائر تاريخيا وجغرافيا، وذلك بالعمل على إلحاقها بالأرض الفرنسية واعتبارها امتدادا جغرافيا له، وكذا إلحاقها بتاريخه وهويته. وخلال مدة تزيد عن قرن من الزمن سعى المحتل على تجريد الشعب الجزائري من شخصيته، وطمس معالم هويته محاولا مسخها وإفراغها من مضامينها، وصبها في قوالب تلائم أهدافه ومخططاته، وتضمن لوجوده الدوام والبقاء في الجزائر.(١)

وكانت الغايات الرئيسية التي قامت عليها سياسة فرنسا الاستعمارية في الجزائر، الفرنسة والتجنيس والاندماج، وللوصول إلى تحقيق هاتين الغايتين كان لابد عليها أن تستهدف ركيزتين رئيسيتين من ركائز الهوية الجزائرية وهما اللغة العربية والدين الإسلامي، وقد حرص الاستعمار الفرنسي على تحقيقها ليمكن لنفسه، ويثبت وجوده، ويضمن ويوطد دعائم بقائه، ويجعل من الجزائر مستوطنة تابعة له ماديا وروحيا.

وقد وجه الاستعمار همه بعد محاربة الدين الإسلامي محاربة اللغة العربية وهي اللغة التي تصون تماسك الشعب وتبقي على وحدته، وتحافظ على تماثل أفكاره ومشاعره.(٢) فهويعرف بأنه لن يستطيع التحكم في رقاب الناس ومصائرهم إلا إذا استطاع أن يقضي على لغتهم القومية، فالشعب لن يتحول عن هويته وشخصيته إلا إذا تحول من لغته، لأنه إذا انقطع من نسبه للغته انقطع من نسب ماضيه ورجعت قوميته صورة محفوظة في التاريخ، لا صورة محققة في وجوده، فليس كاللغة نسب للعاطفة والفكر... وما ذلت لغة شعب إلا ذل،ولا انحطت إلا كان أمره في ذهاب وإدبار.(٣) فلا غروإذا رأينا الفرنسيين أوما يفعلون بعد أن استقر بهم المقام بعض الاستقرار، هوأن يبادروا إلى محاولة محوالشخصية الجزائرية الأصيلة عن طريق فرنسة الألسنة والعقول.(٤) ولتحقيق أهدافه في ذلك حرص المحتل على محاصرة اللغة العربية واعتبرها لغة أجنبية ميتة واستبدلها بلغته التي أصبحت لغة رسمية بالجزائر بموجب مرسوم ٢٢جويلية ١٨٣٤م والذي قرر ضم الجزائر إلى فرنسا، ومنعت السلطات الاستعمارية فتح المدارس العربية التي تعلم اللغة العربية ومعاقبة كل معلم مسلم يتولى إدارة مكتب لتعليم اللغة العربية بدون رخصة، ولذلك فإن المستعمرين كانوا يزدرون الجزائريين ويحتقرونهم، ودليلنا على هذا الازدراء أنهم لم يؤسسوا لهم مدارس في بواديهم وقراهم، ولم يجبروهم على التعليم، ولم يحثوهم عليه.(٥) كما حاول الاستعمار القضاء على اللغة العربية بتشجيع استعمال اللغة العامية في الكتابة والمدارس وإحياء اللغة البربرية من جهة، وعن طريق إغلاق الكتاتيب والمدارس الابتدائية والثانوية وتخريب المراكز الثقافية التي كانت منتشرة في عدة مدن جزائرية منذ القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد من جهة أخرى.(٦)

ولتحقيق طمس الهوية العربية الإسلامية في الجزائر رمت فرنسا التعليم بسهم قاتل، حتى يتسنى لها القضاء على العروبة كجنس ولغة، والقضاء على الإسلام كدين وحضارة وثقافة، كي تتمكن من تنصير الجزائريين وفرنستهم تمهيدا لإدماجهم في الكيان الفرنسي العام.(٧) ولذلك استولت على الأوقاف وأهملت التعليم ودمرت مؤسساته وأصدرت المراسيم المحاصرة له بعدم فتح المدارس أوالتدريس إلا بعد الترخيص لذلك ووفق شروط تعجيزية صعبة،والواقع أن السياسة

الاستعمارية فيما يتعلق بالناحية التربوية والتعليمية كانت ترمي إلى تكوين جماعات منفصلة عن مقومات الشخصية الإسلامية العربية وإلى تحويل الشعب كله وإدماجه في الحضارة الأوروبية والثقافة الفرنسية عن طريق نشر اللغة الفرنسية ومقاومة الشريعة الإسلامية التي ترى أنها هي العقبة الوحيدة التي تحول دون الاندماج. (٨) ولكن الشعب الجزائري وبطرقه البسيطة واصل تعليم أبنائه وانحصر ذلك في بعض المدن، وفي بعض المناطق النائية البعيدة عن الاحتلال في بعض المساجد والزوايا وبطرق بدائية كاستعمال اللوحة والسمق في تعليم القرآن، وكانت هذه الطريقة السبيل الوحيد للحفاظ على الشخصية العربية للجزائر أمام خطر الاندماج الذي يهددها.(٩) ولذلك يظهر أنه من الصعب أن يجحد المجهود الذي قامت به هذه الزوايا في سبيل تحفيظ القرآن ونشر الثقافة العربية الإسلامية في ظروف كان يهيمن عليها الاستبداد،(١٠) وكانت هذه الطريقة السبيل الوحيد للحفاظ على الشخصية العربية للجزائر أمام خطر الاندماج الذي يهددها.(١١) وبقي حال التعليم على هذه الحال حتى قيض الله للجزائر رجالا مصلحين حملوا على عاتقهم مهمة إنقاذ الأمة من دياجير الجهل، ودجى التخلف الذي أوقعها فيه المحتل بتسخير جميع الجهود والطاقات للنهوض بالأمة وكان ذلك ابتداء من أواخر القرن التاسع عشر حتى ظهور الحركة الإصلاحية الممثلة في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي لعبت دورا رائدا في بعث الثقافة العربية والإسلامية في فترة ما بين الحربين العالميتين، وتكوين الأجيال الجزائرية الصاعدة تكوينا معاكسا للخط الذي تقوم به مدرسة الاحتلال، حيث عملت على تربيتهم على الوطنية، والقومية، والإسلام، وإعطائهم علما قليلا ولكن مع فكرة صحيحة، ونظرة إلى الحياة سديدة.(١٢) ونتيجة لظروف الاحتلال وسياسته العنصرية في محاربة اللغة العربية انعكس ذلك سلبا على الحياة الأدبية، لأن اللغة تعد أداة التعبير في الأدب،فأزمع على طمس معالمها، وتدثير بنيتها، والتشكيك في كفاءتها، والتزهيد في تعلمها بفتح الوظائف لمن يتقنون الفرنسية وحدها(١٣)، وعمل بجهد على محاربتها وتغييبها فكادت تختفي من الحياة الأدبية والثقافية، ونتيجة لكل هذه التعسفات انتشر الجمود، ودعم الجهل ووجد كثير من الجزائريين أنفسهم مضطرين إلى تعلم اللغة الفرنسية، بل إن بعضهم اتخذها مادة لثقافته، ووعاء لتفكيره. لقد بنى الاستعمار الفرنسي في الجزائر سياسته على تقويض أسس مقومات الشعب الجزائري، فهولم يأت لينشر حضارة كما زعم وإنما أتى ليسلب الشعب ويزور تاريخه ويحطم كيانه ويستغل ثروته، وبذلك تعرضت شخصية الأدب التي ظلت محتفظة بمقوماتها وملامحها إلى هزات عنيفة كادت تفقدها تلك المقومات والملامح، لأنها لم تستطع أن تواجه الغزوالثقافي بنفس العتاد الذي جاء به الاحتلال في عنفوانه وانتقامه(١٤).

جهود الحركة الإصلاحية الجزائرية في الدفاع عن اللغة العربية :

ولما قامت الحركة الإصلاحية في الجزائر وجدت نفسها أمام واقع كارثي يعيشه الشعب نتيجة السياسة الهمجية المطبقة عليه من قبل الاحتلال، فاعتمدت سياسة خاصة لإخراجه مما يتخبط فيه من جهل وفقر وتخلف، وقد ركز "عبد الحميد بن باديس" رائد الحركة الإصلاحية في الجزائر على إعادة بناء المجتمع بإخراجه من جهله، لأنه رأى بأن بناء المجتمع وتغييره من وضعه السيء إنما يكون بتغيير ما بنفسه نحوالأحسن بواسطة العلم.(١٥)

ومن أهم صور هذا الواقع الكارثي السياسات الخطيرة التي عملت فرنسا الاستعمارية على فرضها للقضاء على الهوية العربية الإسلامية في الجزائر وفي مقدمتها اللغة العربية مسألة التجنيس والإدماج ، فلقد حرصت الحركة الإصلاحية في الجزائر منذ قيامها على الحفاظ على ثوابت الأمة ومقوماتها من دين ولغة، لأن السياسة الاستعمارية في الجزائر بنيت على أركان التنصير والتجهيل والفرنسة والتجنيس لتتمكن من إحكام سيطرتها الكاملة على الإنسان الجزائري ووطنه وتلحقهما بالأرض الفرنسية قلبا وقالبا. والمقصود بسياسة الفرنسة العمل بكل قوة ومكر وخبث على صبغ الجزائر أرضا وشعبا ومدنا ومعالم تاريخية وحضارية بصبغة فرنسية خالصة حتى تنشأ الأجيال الجزائرية الصاعدة في جوومحيط فرنسي شامل(١٦).أما سياسة التجنيس فالمقصود بها منح بعض الجزائريين الجنسية الفرنسية وخاصة المثقفين منهم لإدماجهم في الأمة الفرنسية بمنحهم بعض الحقوق التي يتمتع بها الفرنسيون، وتهدف هذه

السياسة إلى القضاء على الشخصية العربية الإسلامية في الجزائر. وكانت الدعوة إلى الاندماج، والتجنس بالجنسية الفرنسية، والأخذ بأسباب الحضارة الأوربية، ونبذ التعصب الديني رائجة على أعمدة الصحف الفرنسية والأهلية المأجورة، وتردد الكثير منها على ألسنة بعض النواب الأهالي، والمتفرنسين الذين اندفعوا يباركون برنامج التجنس الذي كان من واضعيه، والمخططين له الوالي العام"موريس فيوليت".(١٧)

وقد أحدثت سياسة التجنيس والإدماج جدلا بين المؤيدين والرافضين، فكانت مجموعة من أولي الميول الفرنسية، وممن انقطعوا عن الثقافة العربية، وممن لم يكونوا، فيما يبدو، يعرفون من الإسلام إلا اسمه: ينضحون عن فكرة الإدماج ويرونها فرصة عظيمة لأن يذوب الشعب الجزائري في الكيان الفرنسي وينتهي من الوجود والتلاشي، غير أن الوطنيين والشخصيات الوطنية الكبيرة رفضت هذه المؤامرة الخبيثة، بل أفتى العلماء بتكفير المتجنس بالجنسية الفرنسية يومئذ، فيما يقال، فقيس على المرتد عن دينه...(١٨)، وفي مقال بعنوان:"الجنسية القومية والجنسية السياسية" يوضح رائد الحركة الإصلاحية في الجزائر "عبد الحميد بن باديس"الفرق بين الجنسيتين، فالجنسية القومية تقوم على اللغة والدين والتاريخ، والجنسية السياسية أن يكون لشعب ما لشعب آخر من حقوق مدنية واجتماعية وسياسية، ويمكن لشعبين مختلفين في الجنسية القومية أن يتحدا إذا تناصفا فيما ارتبطا به من الجنسية السياسية" فأما إذا لم يرتبطا بالجنسية السياسية فلابد لهما ـ مهما طال الأمد ـ من أحد أمرين إما أن يندمج أضعفهما في أقواهما بانسلاخه من مقوماته ومميزاته فيؤول أمره ـ ولابد ـ إلى الانفصال."(١٩) وأراد صاحب المقال بهذا التقديم الوصول إلى أن الأمة الجزائرية هي أمة موجودة بمقوماتها ومميزاتها وهي من أشد الناس محافظة على جنسيتها القومية " وبعد فنحن الأمة الجزائرية لنا جميع المقومات والمميزات لجنسيتنا القومية وقد دلت تجارب الزمان والأحوال على أننا من أشد الناس محافظة على هذه الجنسية القومية وأننا ما زدنا على الزمان إلا قوة فيها وتشبثا بأهدابها وأنه من المستحيل إضعافنا فيها فضلا عن اندماجنا أومحونا."(٢٠) ويؤكد "ابن باديس" في مقال آخر على هوية الأمة الجزائرية المتميزة عن الأمة الفرنسية ورفضها للاندماج الذي لا تستطيعه وإن أرادت" ثم إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تريد أن تصير فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولوأرادت، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها وأخلاقها وفي عنصرها، وفي دينها، ولا تريد أن تندمج، ولها وطن محدود معين هوالوطن الجزائري بحدوده الحالية المعروفة."(٢١) فـ"ابن باديس" في هذه المقالة يطالب وبشكل حذر بالاستقلال خوفا من بطش الاستعمار، وخوفا على مصالح جمعية العلماء المسلمين السياسية، ويوضح بأن رفض الاندماج ليس معناه العداء لفرنسا بل إن تعامل الشعب الجزائري معها مبني على الصداقة الصادقة،ولذا يجب عليها احترامه ومنحه جميع حقوقه" نريد منهم أن يحترموا ديننا ولغتنا ويحفظوا كرامتنا ويأخذوا بأيدينا في طريق النهضة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وهكذا نعيش وإياهم أصدقاء مخلصين."(٢٢)

ويخلص في مقالته هاته إلى:

١- إثبات كيان الأمة الجزائرية؛

٢- إثبات الوطن بحدوده الدولية المعروفة؛

٣- إثبات الشخصية المتفردة لهذه الأمة باللغة والدين والأخلاق.(٢٣)

وكانت لكتابات "ابن باديس" في رفضه لسياسة الاندماج ردود فعل ساخطة وخاصة من الذين تربصوا به وبحركته وسعوا إلى شلها وفهموا من تصريحاته بأنه يحرض على الاستقلال،وفي مقال كان فيه صريحا وجريئا وضع نقاط المسألة على حروفها" لكن خصومنا، كما قلنا آنفا أرادوا أن يفهموا من كلامنا أننا نريد الاستقلال ورأوا أنهم يحرجوننا إذا وضعوا البحث على بساط الاستقلال حتى إذا زل بنا القدم فوق هذا البساط الأملس استنزلوا علينا نقمة الحكومة، وطلبوا أن نعامل معاملة الثائرين المهيجين وأن نذهب ضحية قوانين روبي وما سبقها."(٢٤) ويرى بأن مسألة الاستقلال هي حق طبيعي لكل أمة من أمم الدنيا ومن الممكن أن يصبح هذا الحق يوما ما في الجزائر"وليس من العسير بل أنه من الممكن أن يأتي يوم تبلغ فيه الجزائر درجة عالية من الرقي المادي والأدبي وتتغير فيه السياسة الاستعمارية عامة والفرنسية خاصة، وتسلك فرنسا مع الجزائر مسلك إنكلترا مع استراليا وكندا واتحاد جنوب إفريقيا، وتصبح البلاد الجزائرية مستقلة استقلالا واسعا تعتمد عليها فرنسا اعتماد الحر على الحر."(٢٥)

وقد عكست أغلب مواقف رجال الحركة الإصلاحية الحرص على ثوابت الأمة والدعوة إلى التمسك بها ووجوب الدفاع عنها. ويؤكد "مبارك الميلي" في إحدى خطبه على عروبة الجزائر وإسلامها، وأنها لا تستطيع أن تحيا خارج عروبتها ودينها لأنهما شيئان متلازمان لا يمكن الفصل بينهما " الأمّة الجزائرية أمّة عربية الدين فرنسية النظام الإداري، والدين بالنظر إلى المجتمع كالروح والنظام كالجسد، فلا يكون المجتمع حيويا ناميا ما لم يتمسك بالدين ويعشق النظام، فالأمة الجزائرية لا تكون حية إلا بالعربية لفهم دينها والفرنسية لفهم قوانين دولتها وأنظمتها."(٢٦) ويرى "محمد الصالح خبشاش" في إحدى خطبه بأن الهوية العربية ليست جديدة على الشعب فهي موغلة الجذور في التاريخ والأمة الجزائرية مسؤولة كل المسؤولية على الحفاظ عليها لأنها إن فرطت فيها فقد فرطت في حياتها ووجودها" إن لغة تظلل وطنا مدة اثني عشر قرنا وترسخ جذورها بأرضه خليقة بأن تحيا وتعيش، وأهل هذا الوطن – إن كانوا يعقلون – مدينون لتلك اللغة ومسؤولون عليها أمام الأجيال المقبلة، والتاريخ إن فرطوا فيه لا يسطر لهم إلا صحف الخزي والعار... بينما أن هذه اللغة معتبرة عند الأمم الحية وهي لغة علم وأدب تسع ما لم يسع غيرها لووجدت من يهذبها."(٢٧) أما "محمد البشير الإبراهيمي" فيقرع في خطبة له ناقوس الخطر من تضييع الأمة للغتها واستهانة شأنها وما ينتج عن ذلك، ويدعوإلى إحيائها لأن في حياة اللغة حياة الأمة" وكلكم يعلم أن هذا اللسان ضاع من بيننا فأضعنا بضياعه كل ذلك التراث الغالي النفيس من دين وتاريخ، وأن اللغة هي المقوم الأكبر من مقومات الاجتماع البشري وما من أمة أضاعت لغتها إلا وأضاعت وجودها واستتبع ضياع اللغة ضياع المقومات الأخرى، ويأبى لكم الله والإسلام أن تضيعوا لغة كتاب الله ولغة الإسلام، ويأبى لكم إلا أن ترجعوا إليها لتحيوا بها الفضيلة الإسلامية في نفوسكم ولتحيوا بها الحياة التي يريدها الله منكم."(٢٨) وتأكيد هذه المواقف على اللغة كثابت أساسي من ثوابت الأمة يعود إلى أنها لغة الدين والهوية وتربطها بالأمة روابط روحية وتاريخية، ومن ثمة حق على الأمة أن لا تعقها وأن تبر بها وهذا ما يبينه الخطيب "عيسى الدراجي" في حفل ختم "ابن باديس" لتفسير القرآن " إن اللغة العربية هي لغة كتابنا، وكنز آدابنا والقاموس الجامع لأحسابنا والقائمة الحافظة لأنسابنا، ثم هي مع ذلك كله مفتاح أسرار ديننا العزيز، فهل يجمع بنا مع هذه الشوابك الروحية والتاريخية بيننا وبينها أن نعقها هذا العقوق الشائن الذي سبت به الأجيال البائدة منا، وسيكون وصمة أخرى للأجيال القائمة إذا لم نتدارك نحن أمرها ونشد أزرها ونهيئ للأجيال الآتية بعدها ما لم نهيأه لنا من قبلنا."(٢٩) كما أكد المصلحون في سير مقاومتهم لسياسة الفرنسة والتجنيس على أن اللغة العربية والدين الإسلامي باقيان في هذا الوطن رغم ما يلاقيانه من حرب ضروس تستهدف القضاء عليهما، ويبرز المصلح "أحمد بن عبد الحفيظ السالمي" ذلك" وقد مد هذا الليل البهيم على الجزائر صلبه وأردف أعجازه، وتتابعت ويلاته وظلماته حتى ظن العقلاء الذين فيهم بقية إحساس أنه ليس بمنجل وأن ما حاكه المبطلون والدجالون على العقول والأفكار لا يمكن نقصه، وما علموا أن المياه ترجع و-لابد- إلى مجاريها وأن الإسلام والعربية مكتوب لهما البقاء وأن هذه الدار دار إسلام ودار عربية وأن الله ينصرهما على حين اليأس وقد حقق الله ذلك..."(٣٠)

فالخط العام للحركة الإصلاحية منذ البداية هورفض سياسة الاندماج جملة وتفصيلا لما في ذلك من خطر على الشخصية العربية الإسلامية في الجزائر وعلى هوية الشعب ومقوماته، ولذلك وجدنا المصلح "مبارك بن محمد الميلي" وهوبصدد رده على أحد أنصار الاندماج يصف سياسة الاندماج بالقبر الذي لا نشر بعده وأن الذين يربطون بين اندماج الأمة الجزائرية وتمدنها مخطئون، لأن ذلك بعيد عن دينها وأخلاقها " وهذا التمدن الأوربي الفرنسي الذي تراه لازما للأمة قد كان مفقودا أيضا من الجزائر، ولم يزل مفقودا، فما الداعي لترجيح تمدن بعيد عن دين الأمة وأخلاقها وعوائدها على تمدن هوالمتفق معها في كل ذلك؟"(٣١) ويرى صاحب المقال بأن السعي وراء الاندماج مع فرنسا واقتفاء أثرها لا يؤدي إلا للتخلف وذوبان الأمة وانقراضها والتحاقها بالأمم البائدة " ولوسعينا خلف التمدن الأوربي والاندماج في الأمة الفرنسية وقد – أتينا ذلك أخيرا – لبقينا دائما في مؤخرة الأمم الناهضة لأننا نكون قد تمسكنا بتمدن في دور شيخوخته فإذا جاء دور تمدن آخر لم نخرج من الأول إلى الثاني إلا وقد شاخ الأخير أيضا وهكذا دواليك."(٣٢) ويفضل بقاء الشعب على

حالته من تخلف وجهل ووضع مزر على أن يندمج في أمة أخرى ويذوب فيها " إن البقاء على هاته الحالة التي نحن متفقون على مقتها خير-عندي- من الاندماج، لأن حياة منحطة خير من ميتة شاذة عن ميتة الأمم، ولوأن المفكرين في صالح الجزائر والعاملين لتطهير عقولنا من الأوهام يتفقون كلهم – وهوما لا يكون أبدا – على فكرة الاندماج لوقفت في صف دعاة الجمود ونصراء الخرافات والأوهام، لأني أرى ذلك خيرا."(٣٣)

وقد أبرزت الحركة الإصلاحية في الجزائر ما للتعليم من دور في مواجهة المآسي والمشاكل التي يعيشها الشعب، فقد رأى "ابن باديس" عندما انتخب رئيسا لجمعية العلماء المسلمين بأن انتخابه هوتشريف للتعليم ودوره الذي كان قائما عليه والذي يعد من أشرف مقاصد الجمعية" إخواني إنني أراكم في علمكم واستقامة تفكيركم لم تنتخبوني لشخصي وإنما أردتم أن تشيروا بانتخابي إلى وصفين عرف بهما أخوكم الضعيف هذا، الأول أنني قصرت وقتي على التعليم إظهارا لمقصد من أعظم مقاصد الجمعية وحثا لجميع الأعضاء على العناية به بكل جهد."(٣٤) وتقوم دعوة الحركة الإصلاحية الممثلة في جمعية العلماء على العلم لأنه السبيل الوحيد لإخراج الشعب من ظلمات الجهل والتخلف وقد بين "الإبراهيمي" ذلك في إحدى خطبه "وندعوللعلم الذي هوسلم السعادة ورائد السيادة."(٣٥) وفي سبيل تحقيق هذه الغاية أنشأت المدارس والمعاهد وكثفت دروس الوعظ والإرشاد والوعي في المساجد والنوادي، وبدأت الحياة تسري من جديد في أوصال الجسد الجزائري بعدما كادت السياسة الاستعمارية المطبقة عليه أن تقضي عليه، فلقد أدت سياسة التجهيل إلى نتائج كارثية على المجتمع الجزائري في اختلال عبادته وأحكام دينه، وتفكك أواصر الأخوة بين أفراده، وضعف وازعه الديني، واستبدال الرذيلة بالفضيلة، وتأثر بأخلاق الأجانب وعاداتهم، وأدى ذلك كله إلى الانحلال والتفكك. وبسبب ذلك وجد المصلحون أنفسهم مضطرين لتصحيح هذا الواقع باعتماد التربية والتعليم لتنوير العقول وتطهير النفوس ومحاربة الخنوع والسكون ومقاومة البدع والضلالات "أما الاعتناء بالتعليم فهذا الذي انقطعت إليه الجمعية وقامت به قيامها ففي قسنطينة وفي ميلة وفي الميلية وفي جيجل وفي بجاية وفي بسكرة وفي تبسة وفي بلدة الجزائر وفي بني ورتلان وبني يعلي وفي تلمسان وفي غيرها في كثير من البلدان تجد رجال مجلس إدارة الجمعية وغيرهم من ذوي العالمية يقضون ليلهم ونهارهم في الدروس العلمية الفقهية والدروس العلمية الإرشادية وتلقين مبادئ الدين واللغة لمن استطاعوا إليه سبيلا من النشء الصغير ولوأن التعليم كان حرا ولوأن الرخص كانت تعطى لمن يطلبها لكان التعليم اليوم قد عم القطر كله."(٣٦) وقد حققت الحركة الإصلاحية في مقاومتها لسياسة التجهيل انتصارات وجنت ثمار ما زرعته من إصلاح ومحاربة للجهل ومظاهره بفضل مجهوداتها التعليمية " القصد من هذه الجمعية هومحاربة الآفات الاجتماعية كالخمر والميسر والبطالة والفجور، فكل ما يفسد على الناس عقولهم أويضيع عليهم أموالهم، فهومن الآفات ولهذا حاربت الجهل والجمود والدجل والخرافة وكل أنواع الأباطيل، وحاربت كل واقف في طريق التعلم والتعليم أي نوع من أنواع التعلم والتعليم."(٣٧) كما أشار المصلحون في كثير من المناسبات خاصة في افتتاح المدارس والمعاهد، وفي اجتماع الجمعيات الخيرية والاجتماعية إلى ما للعلم من دور فعال في إخراج الأمة من دياجير الجهل ومن هؤلاء المصلح "عطفاوي سليمان بن الحاج داود":"أيجدر بنا ونحن في عصر تجلت فيه فائدة العلم بأجلى مظاهرها وأحلى منظرها أن نمكث في أوحال الجهل والغباوة ونستسلم للقضاء النازل لا نبدي حراكا؟ لا لا بل لا مناص لنا من مجاراة الأحياء في مضمار التقدم والرقي ولا يسعنا إلا أن نضرب معهم بسهم. كيف نستكين للدعة والخمول ونرضى بسقط المتاع بدلا من الحياة الطيبة والحال إن الصبح قد تبين لذي العينين."(٣٨) ويدعومصلح آخر إلى وجوب الاستفادة من العلم واستغلال فرصة ذلك بالجد والاجتهاد للقضاء على الجهل المستشري وابتعاث الحياة" إخواني رجال المستقبل! ها قد عرض علينا رجال اليوم المصلحون ما يحصل صحة عقولنا، ويدفع عنا أمراض الخيالات الفاسدة والخرافات الفتاكة بالعقل ها قد عرضوا علينا ما يبعث فينا حياة العلم ويدفع عنا موت الجهل."(٣٩)

وقد كانت غاية الحركة الإصلاحية التي قامت في الجزائر هي إحياء مجد الدين الإسلامي، وإحياء مجد اللغة العربية إلى جانب غايات سامية أخرى ويوضح "الإبراهيمي" ذلك "فأما إحياء مجد الدين الإسلامي فإقامته كما أمر الله

أن يقام بتصحيح أركانه الأربعة العقيدة والعبادة والمعاملة والخلق فكلكم يعلم أن هذه الأركان قد أصبحت مختلة وإن اختلالها أوقعنا فيما ترون من مصائب وبلايا وآفات. اختلت العقائد ولابسها هذا الشوب من الخرافات والمعتقدات الباطلة فضعفت ثقتنا بالله ووثقنا بما لا يوثق به."(٤٠)

وقد حقق أبناء الحركة الإصلاحية ثمارا ظاهرة في إعادة الأمة إلى شخصيتها بعدما أوشكت سياسة المحتل وكادت أن تقضي عليها وهودليل على نجاح مقاومتها لسياسته وتجلى ذلك في التفاف الأمة من جديد حول هويتها ودينها ولغتها ويؤكد هذه النتيجة في حفل ختم "ابن باديس" لتفسير القرآن الخطيب "محمد المنصوري الغسيري":"أعز الله بكم الإسلام ولغة الإسلام من بعد ما خالهما أقوام على وشك الزوال وأرجف أقوام بزوالهما بالفعل فجئتم اليوم تفندون بصنيعكم هذا الحسبان وتدحضون هذا الظن الخاطئ وتقيمون الدليل الملموس على أنكم أبناء هذا الدين وهذه اللغة وأنكم أنصارها تبذلون في سبيلهما كل قوة مادية ومعنوية وترفعون بهما شأن أمتكم..."(٤١)

ويتبين لنا من خلال هذه المقاومة بأن نجاح الحركة الإصلاحية في مسعاها وغايتها يعود إلى أنها تبنت قضية الأمة وجوهر صراعها مع عدوها، واعتمدت العلاج الحقيقي لأسقامها وعللها بالرجوع بها إلى أصلها وثوابتها، وإعادة الروح إلى جسمها، فأفشلت بذلك مخطط المحتل الذي كاد أن يفصل روح الأمة عن جسدها" إذا كانت الجمعية بلغت – بتوفيق الله – إلى شئ من غايتها فذلك لأنها أتت هداية الأمة من بابها فخاطبتها بلسانها وقادتها بدينها الذي هوزمام روحها، والجزء الأعظم الذي تتكون منه وتحيا به شخصيتها فعالجتها بالكتاب والسنّة وهدي السلف الصالح."(٤٢)

وفي إطار العمل الإصلاحي الهادف نجد شعرًا معبرًا عن الذات الجزائرية دينيًا وقوميًا، ولعلّ قصيدة "ابن باديس" المشهورة أفضل تعبير عن ذلك، وتأكيد الذات في هذه القصيدة هوما نذرت جمعية العلماء نفسها له عن طريق الإصلاح الذي يعتبر إلى حدٍ ما الوجه الآخر للرفض بعد خمود المقاومة المسلحة(٤٣)، فقد ركزت جمعية العلماء الجهود في ترسيخ مقومات الذاتية الجزائرية، التي بها اهتدت، وبها صالت وجالت في مجال الحضارة والعمران، وبها تنهض وترد العدوان، حتى أصبحت قيمًا خالدة وشعارًا مقدسًا، ترددها الأفواه وتكتبها الأقلام، وهي الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا.(٤٤)

وقد وضع "ابن باديس" في هذه القصيدة قواعد الإنتماء الجزائري موقفًا بذلك كلّ الجدل والحوار الذي امتد زمنه في تحديد الهوية الوطنية، فالشعب الجزائري مسلم لا يعرف دينًا غير الإسلام وقد ألف هذا الدين بمبادئه وقيمه السمحة بين الأمازيغ وبين العرب الفاتحين الذين حملوا رسالة الإسلام واللغة العربية إليهم فأصبحت الجزائر أرضًا مسلمة وعربية قلبًا وروحًا، ويكون الشاعر بهذا التأكيد قد حدّد معالم الهوية الوطنية،وأفكار هذه القصيدة تلخص أفكار "ابن باديس" في الإصلاح، وفي الحياة، وفي الوطنية، وتكشف عن ذكاء متألق في مقاومة الاستعمار الفرنسي الشرس بالكلمة النافعة... ومن ثم تعبر على نحوعام، عن فلسفة " ابن باديس" في تصور النهضة، وتمثل التجديد، وتحسس الإصلاح والنظر إلى مستقبل الجزائر مع فرنسا(٤٥). وغاية جمعية العلماء تبدوواضحة في إطار هذه الأبيات القومية الشاملة التي تركز على الإنتماء الديني للشعب الجزائري المسلم وتحدد انتسابه القومي إلى العروبة التي هي أصله ولا يمكن أن يحيد عنها، وهوبذلك يحارب فكرة لطالما سعى الاستعمار إلى تحقيقها وهي فكرة إدماج الجزائر في فرنسا:

شعب الجـزائـر مسلمٌ

وإلى العـروبة ينتسـب

من قال حال عن أصله

أوقـال مـات فقد كذب

أورام إدمـاجًـا لـه

رام المحال من الطلب(٤٦)

و"ابن باديس" في تأكيده على الذات وطنيًا وقوميًا، لا ينطلق من مجرد كلام حماسي عاطفي وإنّما يرتكز على الماضي التاريخي لهذا الشعب ولهذه الأمّة:

نحن الألى عرف الزما

ن قـديمـنـا الجـم الحسب

ومعين ذاك المجد في

نسل العروبة ما نضب(٤٧)

وفي قصيدة أخرى لـ"ابن باديس" يتغنى فيها بقوميته العربية الإسلامية، أشاد فيها باسهمات العرب والمسلمين في خدمة المدنية والإنسانية:

المجـد لله ثـمّ المجـد للعـرب

من أنجبـوا لبنـي الإنسان خير نبي

ونشـروا ملّـة في النّاس عادلة

لا ظلم فيـهـا علـى دين ولا نسب

وبـذلـوا العلـم مجانًـا لطالبه
فنـال رغباه ذوفقـر وذونسـب
وحرروا العقل من جهل ومن وهم
وحرروا الدين من غش ومن كذب
وحرروا النّاس من رق الملوك ومن
رق القداسة باسـم الديـن والكتب
قومي هم وبنـوالإنســان كلّـهم
عشيرتي وهـدى الإسلام مطلبي(٤٨)

وفي إحدى الجلسات الختامية لمؤتمر جمعية العلماء المسلمين يؤكد "ابن باديس" على الذاتية الوطنية والقومية للشعب الجزائري ويدعوإلى وجوب التمسك بها والوفاء لها:

أشعب الجزائر روحي الفدى
لما فيك مـن عزّة عـربية
بنيت على الديـن أركانها
فكانت سلامًا على البشرية
خلدتم بها وبكـم خلـدت
بهذي الديار على الأبـدية
فدوموا على العهد حتى الفنا
وحتى تنالوا الحقوق السنية(٤٩)

لقد عملت الإدارة الفرنسية المحتلة للجزائر منذ احتلالها على طمس معالم هوية الشعب الجزائري لإلحاقه بالشخصية الفرنسية وتجريده من شخصيته ليسهل اقتياده والسيطرة عليه والتحكم في مصيره ، وكانت اللغة العربية التي تمثل صورة من صور هذه الهوية مستهدفة بدرجة أولى لأن تحول الشعب من لغته هوتحول من شخصيته. ولذلك واجهت الحركة الإصلاحية هذه السياسة بسلاح التعليم العربي الذي يحافظ على اللغة العربية كلسان وهوية بتسخير جميع الوسائل الإصلاحية لتحقيق الهدف. وقد استطاعت هذه الحركة وفي مدة زمنية لم تتعد الثلاثة عقود أن تحقق انجازات عظيمة تجسدت في المدارس والنوادي والدوريات الإعلامية العربية وفي أفواج الطلبة المتخرجين من معاهد جمعية العلماء المسلمين يحملون مسؤولية الحفاظ على اللغة العربية لسانا وهوية والدفاع عنها.

الهوامش :

١. حسن عبد الرحمان سلوادي، عبد الحميد بن باديس مفسرا،١٩٨٤م، الجزائر،ط١، ص.٢٨.
٢. حسن عبد الرحمان سلوادي، م.م .س.، ص. ٢٩.
٣. مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم، ج٣، ١٩٧٢م، مصر، ص.٣٣.
٤. عبد الملك مرتاض، نهضة الأدب العربي في الجزائر، ١٩٨٣م، الجزائر ط٢، ص.٢٠-٢١.
٥. م. س.، ص.٢٤.
٦. حسن عبد الرحمان سلوادي، م. م. س. ، ص. ٢٩.
٧. تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر، ٢٠٠١م، الجزائر ط٥، ص.١٢١.
٨. عمار طالبي، ابن باديس حياته وآثاره ج١، ١٩٩٧م، الجزائر، ط٣، ص.٤٩.
٩. أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٥م..،ص.٦٣.
١٠. الطاهر زرهوني، التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال، في الثقافة، س١٦، ع٩٥، أكتوبر١٩٨٦،ص.٢٥٢.
١١. أحمد الخطيب، م.م.س.، ص.٦٣.
١٢. تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الوطنية (١٩٣١م –١٩٥٦م)، ١٩٧٥م، الجزائر ط١، ص.٢٣٤.
١٣. عبد الملك مرتاض، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر ج١، ٢٠٠٣م،ص.٤٥.
١٤. أبوالقاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ١٩٧٧م، مصر، ط٢،ص.٢١.
١٥. عبد الرحمان شيبان، في مقدمة الشهاب، م١٦، ص.١٥.
١٦. تركي رابح، م. م .س.، ص.٢٧٢.
١٧. مجمد ناصر، أبواليقظان وجهاد الكلمة، ١٩٨٣م،الجزائر،ط٢،ص.٥٠.
١٨. عبد الملك مرتاض، أدب المقاومة الوطنية،ج٢، ٢٠٠٣م، الجزائر،ص.١٣٣.
١٩. عبد الحميد بن باديس، الجنسية القومية والجنسية السياسية، في الشهاب، ج١٢، م١٢، فيفري١٩٣٧، ص.٥٠٥.

٢٠. م.س.
٢١. عبد الحميد بن باديس ، كلمة صريحة، في الشهاب، ج١ ، م١٢ ، أبريل١٩٣٦ ، ص.٤٤.
٢٢. م. س.، ص.٤٥.
٢٣. عبد الملك مرتاض أدب المقاومة الوطنية في الجزائر١ ، ص.٣٧٧.
٢٤. عبد الحميد بن باديس، حول كلمتنا الصريحة، في الشهاب،ج٣،م١٢، جوان ١٩٣٦ ، ص.١٤٥.
٢٥. م.س.، ص.١٤٦.
٢٦. الشهاب، ع٨٤، م٢، ص٨٨.
٢٧. م.س.، ع١٤٧، م٣، ص٩٤٦.
٢٨. الشهاب، ج٩، م٩، أوت ١٩٣٣ ، ص.٣٥٥ – ٣٥٦.
٢٩. م.س.،ج٤، م١٤ ،جوان جوليت ١٩٣٨ ،ص.٢٢٦.
٣٠. م.س.، ص٢٣٧.
٣١. مبارك بن محمد الميلي، الاتحاد والاندماج، في الشهاب، ع١٥٢، م٤، ص.٥٦.
٣٢. م. س.، ص.٥٧.
٣٣. م.س.، ص.٥٩.
٣٤. الشهاب،ج٦ ،م٧، جوان ١٩٣١ ،ص.٣٦٥.
٣٥. م.س.، ج٩، م٩، أوت ١٩٣٣ ، ص.٣٥٢.
٣٦. م.س.، ج٩، م١٠، أوت ١٩٣٤ ، ص.٣٧٨.
٣٧. م.س.، ج٨، م١٢، نوفمبر ١٩٣٦ ، ص.٣٥٣.
٣٨. م.س.، ع٨٤، م٢، ص.٨٢٤ – ٨٢٥.
٣٩. م.س.، ع٩٠، م٢، ص.١٤.
٤٠. م.س.، ج٩، م٩، أوت ١٩٣٣ ، ص.٣٥٣.
٤١. م.س. ،ص٢٤٢.
٤٢. م.س.، ج٨، م١٢، نوفمبر١٩٣٦ ، ص.٣٥٥.
٤٣. نور سلمان ، الأدب الجزائري في رحابالرفض والتحرير، دار العلم للملايين ، بيروت.، ص. ١٩١.
٤٤. مقدمة الشهاب، ج ١٦ ، ص. ٥٥.
٤٥. عبد الملك مرتاض، أدب المقاومة الوطنية ج٢، ص.١٤١-١٤٢.
٤٦. الشهاب، ج ٤، م ١٣، جوان ١٩٣٧ ، ص. ٢٠١.
٤٧. م.س.، ص. ٢٠٢.
٤٨. م.س.، ج ٣، م ١٤، جوان ١٩٣٨ ، ص. ١١٣.
٤٩. م.س.، ج ٦، م ١٣، أوت ١٩٣٧ ، ص. ٢٧٤.